

سليم قسطنطين -جامعة السربون باريس 4- فرنسا

البحث عن الهوية في رواية "اختفاء اللغة الفرنسية" للروائية آسيا جبار دراسة معجمية رمزية

تعتبر آسيا جبار من أشهر الروائيات اللائتي كتبت بالفرنسية، شهرة استمدتها من وفرة إنتاجها الأدبي وتنوع رؤاها وقدرتها القائمة على الإبداع، ولدت بشرشال سنة 1936، وفي سن الواحدة والعشرين كتبت أول رواية لها، "العطش". وفي سنة 1958، نشرت روايتها الثانية "الذين لا يصبرون". عامان بعد ذلك نشرت روايتها الثالثة "أطفال العالم الجديد". استدعت بعد الاستقلال إلى العاصمة حيث درست في الجامعة "تاريخ شمال إفريقيا، وعملت صحفية ومذيعة، في سنة 1965، غادرت آسيا جبار أرض الوطن إلى فرنسا ونشرت بعد عامين روايتها الرابعة "الطيور البحرية الساذجة".

تنتمي آسيا جبار كمولود فرعون، محمد ديب وكاتب ياسين، إلى الجيل الأول من الكتاب الذين كونوا في الخمسينات مجموعة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية. بين 1968 و1980، عزفت آسيا جبار عن الكتابة لتتجه بمجالات فنية أخرى كالكتابة والإخراج المسرحي مثل مسرحية "كورتيزار"، والمجال السينمائي حيث أخرجت فلمين وثائقيين، الأول سنة 1978، "النوبة، نساء هضبة شناوة"، والثاني سنة 1982 بعنوان "الزردة أو أغنية النسيان"، وكذا بحوث في مجال الصحافة وعلم الاجتماع. هذا الاهتمام وخاصة بمجال الفن السابع فجر رغبتها في الكتابة وعادت إلى عالم الرواية، عالمها المفضل ونشرت روايات ومجموعات قصصية كثيرة يمكن حصر مواضيعها في ثلاث هام:

التاريخ ومعاناة الشعب الجزائري، كمثل معاناته أثناء ثورة التحرير في رواية "نساء جزائريات في حجراتهن". سنة 1982، ومعاناته ضد الإرهاب في رواية "وهران، لغة ميتة"، سنة 1997، كما اهتمت بتاريخ الإسلام ونسائه في رواية "بعيدة عن المدينة المنورة" سنة 1991.

اللغة والشعور بالضيق، بين لغتين، بين ثقافتين، بين عالمين، كضياها في سيرتها الذاتية "الحب والفتازيا" سنة 1985، بين لغتها الأم العربية والأمازيغية ولغتها الثانية اللغة الفرنسية لغة والدها معلم اللغة الفرنسية، وسيرتها الذاتية الثانية "واسع هو السجن" سنة 1995، حيث تحدثت عن بحثها الدائم عن لغة والدتها الأمازيغية، هذه اللغة التي راحت تسرد تاريخها الذهبي.

المرأة و الجسد، الموضوع الشائك وقررة عين آسيا جبار، فهي قبل أن تكون كاتبة، امرأة تكتب لتحرر المرأة من الكبول التي تقيد المرأة باسم العادات، التقاليد، وباسم طبائع الاستبداد الرجالية. ففي روايتها "ظل سلطاني" سنة 1987، و"ليالي ستراسبورغ" سنة 1998، تروي آسيا جبار قصص بطلاتها: إسمي، حجلة، حواء، تومة، ثلجة و جميلة الباحثات عن فسحة أمل، فلم يجدن إلا صرخة الجسد تلعلع كي تكسر القيود و تميظ اللثام عن معانتهن في روايتها "نساء جزائريات في حجراتهن" سنة 1982، تغوص آسيا جبار في الذكريات الأنثوية لتخرج من الأعماق بألم فظيع، ألا و هو إشكالية ترجمة عربية تحتلثري، عربية لا تكتبها أية حروف و لا أية إشارات، عربية في الظل لنساء عشن في الهامش في روايتها هو واسع السجن سنة 1985 و في آخر جزء منها و الذي يحمل عنوان "دم الكتابة" آسيا جبار توضح أن وراء المعارك الحديثة تختفي دوما حروب لغوية: فلما استعمر الفرنسيون الجزائر سنوا لغتهم لغة رسمية ووأدوا الحروف العربية رغم ثقافة عتيقة، و بعد الاستقلال عادت العربية إلى التعليم و الإدارة وصارت اللغة الرسمية لكن همشت الأمازيغية، الفرنسية و كذا اللهجات المحلية للجزائر الشاسعة، هذه العربية ترمز إلى سيطرة الرجال و السجن المؤبد للنساء.

المرأة، الجسد واللغة إنه الثالوث الذي يكون العمل الإبداعي لآسيا جبار: فلا امرأة بدون لغة، ولا لغة بدون جسد، ألم تقل "عندنا للمرأة أربع لغات: الأمازيغية، العربية، الفرنسية ولغة الجسد. ثلاث لغات قد تزوجت مع لغة رابعة هي لغة الجسد برقصاته شطحاته تأوهات، " وبنبرة تهكمية ساخرة كتبت سيرتها الذاتية "الحب و الفتازيا" منذ صغري، و لما كان للرجال الحق في التزوج بأربع نساء، كان للبنات و للنساء الشابات الحق في أربع لغات يستطعن بها التعبير عن شعورهن قبل أن

يخفق، الفرنسية من أجل كتابة السر، العربية لغة التوسلات المخنوقة إلى الله، الأمازيغية حين تردن تخيل جداتهن العظيمات، و اللغة الرابعة سكنت الجسد" اللغة، أجل هذا العنصر الهام الذي زخرت به أعمال آسيا جبار هو الذي كشف الغطاء عن إشكالية هامة، موضوع شائك إهتمت به الكتابة المغاربية باللغة الفرنسية، موضوع الهوية. أسئلة هامة ضجت بها كتابات آسيا جبار: من أنا و من الآخر؟ ما وظيفة الهوية في تكويني أنا؟ هل يمكن الكتابة بلغة الآخر بدون أن نجت من جذورنا؟ ما دور اللغة في تكوين الهوية؟ ما قيمة الفضاء في نسج معالم الهوية؟ كيف نعبر عن الحب بلغة الآخر؟ أسئلة كثيرة و شائكة نجد صداها في رواية "اختفاء اللغة الفرنسية" المنشورة سنة 2003.

في هذه الرواية ذات الأقسام الثلاثة، تكشف آسيا جبار عن مشكلات الهوية التي يعانيها أي فرد حين يعيش بين ثقافتين بين لغتين. هذه المشكلات تتجسد في الاحساس بفقدان الجذور، الرغبة الجامحة في العودة إلى الأصول الأولى، هذه الرغبة التي قد تواجه صعوبات جمة حين يجد الفرد نفسه في عالم يختلف تماما عن عالمه، تارة يطرده و كأنه جسم غريب و تارة يخاطبه و كأنه طفل يغازل حنان أمه الهوية إشكالية ما تزال قائمة في الجزائر و لقد زادت حدة بتزايد تأزم الوضعية اللسانية والسياسية في هذا البلد، فهناك من يدعو إلى العودة إلى اللغة الأمازيغية لغة الأجداد و هناك من يصرخ بالتمسك باللغة العربية لغة الإسلام، وهناك طائفة ثالثة ترى في اللغة الفرنسية السبيل إلى التقدم و الرقي.

سنحاول في بحثنا هذا الكشف عن المشكلات التي يعاني منها جزائري إرتأته الظروف إلى العودة إلى بلده الأم، فرد عاد يبحث عن هوية قد فقدوها. سنقسم هذا المقال إلى ثلاثة أقسام، كل قسم يحلل هذه الإشكالية حسب أقسام الرواية، زيادة على التحليل الأدبي البحث للرواية سنتخذ من الرمزية وسيلة للتعمق في تحاليلنا. هذه الرواية ستكون النص الرئيسي لكن التحليل العميق يدفعنا إلى الاستعانة ببعض الأمثلة التي نقتطفها من الأعمال الروائية و كذا النقدية لآسيا جبار.

1 - "العودة": الهوية، المكان والذكريات

يحمل القسم الأول من الرواية عنوان " العودة"، حيث يرجع بركان البطل الرئيسي للرواية إلى الجزائر محاولا استعادة ذكرياته الطفولية بين حنايا القصبة. الرجوع إلى البلد الأم و بحث عسير عن هويته و جذوره. بركان يحدثنا عن خريف 1991 حين عاد إلى الجزائر بعد عشرين سنة قضاها فيضاحية من ضواحي باريس. عاد إلى الجزائر ليسكن الطابق الثاني من فيلا فخمة مواجهة للبحر. البحر الذي فقد شواطئه، رائحته الزكية و هو في باريس. بين جدران بيته الجديد، يحس بركان بأنه قد شاب، أو بالأحرى فقد كل شيء، يحاول التأمل في مستقبله فلا يرى إلا ظلاما، لهذا لا يجد مفرا غير حياكة خيط يعيده إلى ماضيه. لقد وصل بركان سن الخمسين، و حبيبته الفرنسية "ماريز" قد فارقت، فقد حلاوة العيش في فرنسا و لم يجد إلا أن يقدم طلبا للتقاعد قبل الأوان، ليعود إلى الجزائر مهربه الوحيد بعد انكسار الفؤاد، يعود و يسكن الطابق الثاني الإرث الوحيد الذي بقى له من والده. رجوع محتم و كانت الجزائر قبله بركان، هل يستطيع أن ينسى ماريز بين ضلوع وطنه الحبيب؟ يوم عودتي، مستلق على الشرفة، مواجه البحر اللامتناهي، أمزج و أنا في قيلولتي طفولتي، الشوارع ذات الأدراج في حيي بالقصبة، حيي المبكر لمغاريت التلميذة الوحيدة الفرنسية في المدرسة حتى إلى القراصنة أيام البربروس" ص14.

عاد بركان لينسى الغرام التليد، لكن لما وطأت قدماه الوطن، أحس أن شيئا بداخله يدفعه ليحول هذا الهرب إلى بحث عن أجزاء قد ظننها انمحت، و لكن في الحقيقة لم تكن إلا مخفية بين طيات ذكرياته. أجزاء غمرها النسيان و حين عاد أشرقت شمس الذكريات لتظهرها: اللغة العربية، الجذور و ماضيه العاصمي. عاد لينسى الهوى "الفرنسي" فتذكر وجدا جزائريا ماضيا فراح يبحث عن هويته و صارت اللغة العربية و ماضي طفولته بالعاصمة الخيط الرفيع الذي سينسج هذه الهوية. كان يتذكر الحب الذي يتدفق فيه مرافقا مرجان البحر و في الوقت نفسه، كان يشعر أنه عاد إلى هنا ليضيع عشرين سنة من المنفى " ص 20.

عرف ذلك بعد عشرين سنة قضاها في باريس، صوت البحر ذكره، جدران بيته ذكرته فقرر البحث دون هوادة عن هذه الهوية المفقودة ليستطيع دون خجل أن يعرف نفسه إذا نظر في المرأة. قرر الرحيل بحثا عن هوية و علم أن الرحلة ستكون طويلة صعبة. فبركان لا يستطيع أن يذيق في لمح البصر هويته الفرنسية. لقد عاش عشرين سنة في باريس، تنزه في شوارعها، في مقاهيها، في أسواقها، في قطاراتها السريعة. عشرين سنة لا يمكن أن ينسى فيها خريف "السان" و عنفوان برج إيفل، و جمال ساحة النصر، عشرين سنة لم ينسها و لن ينساها لهذا قرر أن يبقى الحبل متصلا بباريس، قرر أن يكتب دوما إلى ماريان الحبيبة التي هجرته. ماريان اسم المرأة قد جانس ماريان اسم البلد اسم يدندن في أذنيه ليزيد لوعته إلى الحبيبتين: باريس و ماريان التي يناديه ماريان، وجد بركان نفسه يفقد جزءا هاما من أناه، من كيانه لا يديره. لذا فهو لا يتحدث عن لغة فقد أحس أن الفرنسية و حروفها تفر منه، بل يتحدث عن موسيقى: ألحان لغة لا يستطيع موسيقاها إلا إذا صرخ بأعلى صوته ألفاظ لا مرتين و فولتير. لما يريد بركان الاتصال بحبيبة ماريان التي راحت تبعد عنه شيئا فشيئا، لما يريد أن يتحدث معها، عن الجزائري الذي عاد إلى مسقط رأسه لا يجد غير الكتابة عزاء. يكتب بشراهة و حماس و يتساءل إن كانت هذه الكتابة ستفقد شفهية الفرنسية و موسيقاها. يكتب و يكتب و لكن ما مرة بعث رسائله إلى ماريان. يخط و تبقى الأوراق على مكتبه وقد صارت مفكرته اليومية. "إني أكتب هذه الرسالة لأنني أشتاق إليك، و لكن لأنني أحس أيضا بذبذبات غير متوقعة في، بذبذبات أرجو بعد هذا الحديث الصامت معك أن أطفئه، و أجد ببساطة نفسي دون أسئلة سطحية، أسئلة عن حياتي التي اخترتها، أو عن ماضي، خاصة الماضي الذي جمعنا ثم فرقنا. الرمادي من وراء خصم هذه السنوات الطويلة التي قضيتها في فرنسا دون هدف، في يندفع سؤال لماذا هذا المنفى الطويل الذي انتهى أخيرا باستفهام؟ ص20

إنه في العاصمة، خريف المتوسط ينعش فؤاده. أصوات العاصمين تدوخه لكنه باق يكتب بالفرنسية. رغم اغتباطه بالعودة إلى أحضان جزائره الأم، لم تستطع لغة الأم أن تنحي الفرنسية عن عرشها، و ظل بركان يكتب بالفرنسية، يكتب إلى

ماريز يترجم أحاسيسه العميقة، ذاته. "ماريز التي صارت في شفاهي، العزيز الذي لا أدري كيف أتفوهه طبيعياً. و في مكانها ضجت كلمتان أو ثلاث كلمات عربية من طفولتي، بغرابة كلمات صداقة، أو ما يقارب كلمات علاقة دموية قد تزوجت و اسمك المسرحي لكي تعبر عن حياتي[...]. لماذا أذكر في رسالتي رباطنا، و أنا لا أستطيع أن أراسلك بكلمات قبيلتي، معبرا عن الشوق الذي يعتريني إليك [...]. كلمات خصوصيتنا و أصواتها المتناثرة، تسمعيها كموسيقى فحسب، ألا تتذكرني أنني كنت أحزن حين لا تستطعين، لما تتعاقن حواسنا، أن تكلميني بلغتي الأولى، و كأن طفولتي في قلب عناقنا تبعث من جديد..." ص 20-21

بركان في هذه القصة ليس إلا آسيا جبار الروائية الجزائرية التي تعلمت لغة والدها معلم الفرنسية فصارت لغة كتابتها. تكتب بالفرنسية و لكن مشاعرها تفجرت من لغات شتى: عربية، جزائرية، بربرية أمها دون أن تنسى اللغة الرابعة التي نمت بين ضلوع المرأة و جسدها. آسيا جبار تكتب بالفرنسية، لغة أراغون، لكنها تحب، تعشق، تصلي، تتألم بلغة عنترية و كل الجدات الأمازيغيات، على الورق الأبيض ينثر بركان كلماتها بالفرنسية و لكن أماله و آلامه تزار بالعربية.

في العاصمة، صادق بركان رشيد صياد السمك و حميد البقال القبائلي، و معهما يتحدث اللهجة العاصمية، فيحس بفرح عميق و ألفة خاصة تجمعهم بالرجلين، ألفة تعدت ما كان يجمعه بماريز التي يكتب لها بالفرنسية، اللغة التي خلت من هذا الشعور البديع.

عاد بركان إلى أحضان جزائره، إلى اللغة الأم، وفي هذا الجزء نجد حضورا بارزا لصورة الأم حليمة. ألم تطلق آسيا جبار عن لغة الأم مصطلح لغة الحليب؟ حليمة الأم رمز لهذا الحليب فآسيا جبار تعود إلى ماض غابر، فيه امرأة قد أرضعت النبي محمد صلى الله عليه وسلم وكانت تسمى حليمة. "كل شيء ينبض بأصداء صوت أمي التي اختفت ومازالت حية في أناي، متفتحة في فؤادي، التي أتلذذ في بداية عيش شهري، حقيقي، إنني أعود لاحتيا عندنا" ص 14.

بركان يدندن الحروف العربية ويذكر أمه، صوتها، ضحكتها و مواويلها. "لقد استطاع أن يتعرف دون يقين في البداية خريز البحر حين كان طفلا،

حين كان يوافق أخاه الأكبر أن يرافقه إلى الصخور التي تحيط بشاطئ الأول (الشاطئ الفرنسي الذي يزوره البعض الصغار و بعض العرب) في غرب العاصمة يأكلان السمك و يعودان و الوجوه حمراء، أمهما ("أمي التي تضحك دوماً في هذه الكلمات التي تسبح فيه ممزقة) تخضب شعره بالخل... [ماريز هجرتة، لكنه يسمع بوضوح صوت الأم مرددا أغنية الملك الحزين في طبعتها التلمسانية، صوتها الباح كان حزينا، إنها لم تكن تغني جيداً، ماما، تخيلها و شعور بندم لطيف ثم نام يومها، وقد اخترن داخله بكلمات ردها معها في لهجتها هي، خليط من لهجة شوارع العاصمة و كلمات قيمة متاثرة بنمنمات أندلسية، هي التي ولدت بالقصبة." ص 17-18.

بركان محاصر بين لغتين لغة أمه الجزائر و لغة حليمة و اللغة الفرنسية لغة أبيه المعلم و حبيبته ماريـز. بركان يعاني كآسيا جبار في سيرتها الذاتية، الحب و الفتازيا، من الخرس الغرامي الذي يمنعه من التعبير عن الحب باللغة الفرنسية، فلا يجد إلا العربية يعزفها على أوتار لسانه كي يصرخ اسمها. إن استعمال اللغة العربية أو بالأحرى كلمات عربية تصدر من الأعماق لـهي الوسيلة التي يتخذها أبطال روايات آسيا جبار للتعبير عن مشاعر الحب، ألم تجد ثلجة بطة "ليالي ستراسبورغ" في مفردة "أنت" المنطوقة بالعربية بساط الريح الذي ينقلها إلى عوالم الهوى بين ذراعي عشيقها "فرنسوا"، أنت ضمير تعالى بالعربية كأنه مواويل عبد الوهاب أو طقطقات أم كلثوم. كلمة حنون، من حرير، كلمة عربية تأتي و تذهب، كلمة عصفور، كلمة واحدة أحالتها ثلجة و دقا باردا ينعش ليايها رفقة فرنسوا، الاسم ثلجة رمز للثلج البارد يريح الفؤاد لتختفي كلماتها في لحظات كما يذوب الثلج من الصفا يتدفق. الاسم فرنسوا قد اشتق من فرنسا و ها هو يتعلم دروس الصباغة باللغة العربية.

في الجزء الثاني، "رجوع بطيء"، من هذا القسم يقرر بركان اكتشاف وطنه فالمكان عنوان الهوية، خرج يكتشف ربوع العاصمة حاملا جهاز تصوير يعينه، يعود إلى ذكريات طفولته إلى شوارع العاصمة في سنوات الخمسين و هي تشتعل بنيران الثورة المظفرة. يرى الذكريات تمر بين مقلتيه، يرى ذلك الفرنسي المعلق على خشبة الإعدام من طرف الشعب الذي خرج مناديا بالاستقلال، "بدأت ذكريات الطفولة

ترتسم أمامه، الرجل المعلق بحبل و قد أعدمه الفرنسيون القصابون، نداءات الله أكبر الله أكبر التي تشبه في أذني الطفل ذي الخمس سنين نداءات المؤذن" ص -33 32.

ذكريات أليمة يسترجعها، تسكنه و تكشف معها صورة الأب، بركان كان صغيرا وغضب الشعب يسكنه لا يفقه النداءات و لكن أحس بشيء يتذبذب بين خلجان صدره الصغير "الطفل بركان يسأل أمه عن الخرقه بالألوان الثلاثة: الأحمر، الأخضر و الأبيض التي كان يرفرفها المتظاهرون و التي بفضلها استطاع الطفل أن يتبع خطوات الغاضبين غير المنتظمة. هذه الخرقه التي علم أن القصاب قد هدد بسببها". لا تقل خرقه، إنه علم، تجيب الأم حليمة، و لكن هذا العلم لا يشبه العلم المعلق في المدرسة يحترق الطفل بركان. هذا العلم هو علمنا تجيب الأم و العيون متلألئة، أعندنا علم، يحترق الطفل، إنها أول مرة أراه فلماذا تخفيه إذن؟ يجب أن نخفيه أجابت الأم، أما العلم المعلق في المدرسة فهو علمهم" ص 34 - 35.

في المدرسة، المعلم يطلب من تلاميذه رسم باخرة عليها علم، بركان الطفل ما زالت صورة الشعب تخفق بين عينيه، رسم باخرة و علق علم الجزائر عليها، قامت القيامة، المعلم يغضب، المدير يزأر و يستدعي الوالد الذي ما وطأت قدماء مدرسة بركان، بين يدي المدير، الوالد يصفع بركان صفعة حمراء لتتحول اليد في البيت لمسة بيضاء قد حملته إلى عوالم السلام، خضراء أسكنته جنان الرضا. "صفعني أبي أما المدير و قد قال أما المدير، ابني سيكون أحسن جندي فرنسي، و لكن لما رجعنا وجدت أبي بوجه لطيف حنون، و أجلسني على ركبتيه ثم رمقني بنظرة عطوف، عطوف قائلا وجها لوجه: " حذار يا ولدي من الآن، أنت ابني الحقيقي لأنك تعرف علمنا، لكن يجب أن تكون صبورا، سيأتي اليوم الذي فيه يرفرف العلم هنا، أما من... لم أفهم شيئا و لكن لا أنسى قط نظرة أبي". ص 50 - 51

في الجزء الثالث من هذا القسم، يعود بركان إلى فضائه الصغير، إلى أحلى الأماكن و أعزها، إلى "القصة" التي حملت عنوان هذا الجزء. بركان يتذكر و يكتب إلى حبيبته ماري، بركان يتذكر و يحن إلى أمه حليمة، و لان بركان صار ولها القصة، المكان، الفضاء، المرأة الثالثة في حياته. "إني أقول لك، لأجلك و

لأجل أن تقرئي، وحشتي، شوقي لك. لقد تنزهت في هذه الأماكن لأبقى فيها، لأكتب، لكن لأعيش فيها؟ [...] لقد أخذت بعض لقطات تصويرية، ليس عبثاً و لكن احساساً، و كأنني أريد أن أوقن نفسي بحصاد غير منتظر بغنيمة خاصة، أريد أن أقول و كأنني أبدأ بغسل عيوني، أن أتقدم أن أسقط خطوة بخطوة متيقنا أنني عدت فعلاً إلى وطني " ص 28

الأم حليلة، الحبيبة ماريز لكن الهوية القصبة، عاد إلى كيانه، إلى الشوارع التي لم ت شيطانيته الطفولية و لكن ما وجد القصبة القديمة، لقد فقد القصبة العتيقة و أحس أن شيئاً من كيانه قد فقد نهائياً. القصبة الجميلة صارت موحشة متوحشة، البديعة بشعها أهلها، أحوال البهاء العاصمي استعمرتها تآليل البشاعة. بعد أن ألتقط الصور، أختار بعضها، أكبرها بقدر الإمكان وأعلقها في غرفتي مقابل سريرتي، على الجدار المطلي بالجبس [...] في بعض الصباحات، لا أستطيع أن أستيقظ، أراقب هذا المشهد، سأزور العاصمة، أو بالأحرى القلب العتيق للعاصمة الذي أعرفه، ولكن يا للأسف صار موحشاً، البهجة أزور " ص 30-31

القصبة الأصلية ما عادت تعبق بأريج الأصالة. خرج يستكشف القصبة كيانه، لكنه ما بقي وفر من كيانه خائفاً فزعا ليعود إلى حبيبته ماريز، إلى الكتابة التي بها يطفئ ثورته العارمة ضد منشوهحبيبته القصبة وأحوالها رمسا. على أوراقه يصب حزنه الدفين عن فقدان هويته. قرر أن يزور القصبة، هل عشرين سنة من الغربة ستصير فجأة وهما، تسيل مظلمة وتختفي خلفه، وهل الأماكن الضائعة قديما ستصير قريبة؟ [...] القصبة ستهديه أحياءها، شوارعها بعقد، وأدراج ضلال " ضلال دون أسرار، قال ذلك، فأنا جئت ليس كمجيء غريب أو سائح متخلف، ببساطة أنا ابن الحومة، نعم أنا طفل الحي [...] لكن القصبة تغيرت.. إنها تعج بالأسماء، قصبة بركان، توج بالبطلين، بالمخدرين، وبالمسولين [...] بالسراق " ص 55-59

لقد كتب بركان ما يقارب خمس صفحات يصف بشاعة القصبة، القصبة جميلة الطفولة تحولت إلى فضاء مخيف، بعد هذه الرحلة الفظيعة يعود بركان إلى بيته متجنباً صديقه رشيد وحמיד، يعود ليكتب: " إنني أغوص في الصمت كأرملة

العصور القديمة التي وجب عليها أن تعبر أربعين يوما في الظلام و الابتهالات [...] أنا عاجز عن تصوير ضيقي [...] إنني أحاول أن أجد حلا و أنا أكتب إليك" ص 67 - 68.

لكن رغم كل ما يبشع القصة، فهو يهواها "مديني، تفاحة السرو، قصبتي، مغارتي، حصني، حيي، الحومة باقية بعظمتها، بقاء الحجارة، بقاء المنازل ذات الشرفات، والشوارع ذات الأطلال [...] و القطع الضيقة من السماء التي تتبعك، و خاصة الرقاقات التي تسيل بالمارة [...] الضاجة الراقصة [...] هذا الضجيج، هذه الكارثة [...] هذه القرية ذات الجبال وقد ارتفعت، إلى البحر حيث تركع الزوابع، إلى قصبتي سأعود، سأعود لأعيش، فيها قلبي ينبض، أراني فيها أنام، و فيها دوما كي أتذكر، خارجها دوما لأركض، نعم بالأمس، اليوم، في هذا اليوم و دائما و حتى و إن كنت خارجها، إنني فيها... لقد غادرت هذه الأماكن نفسها، بالأمس، مضى عن ذلك عشرون سنة. ظننت ببساطة إنني رحلت إلى مكان آخر، شيء تافه، حياة الأماكن و أناس ظننتها تبقى تتبع خلفي، إذن في، أنا الذي ظننت في لحظات أني المفارق البعيد. أغنية من طفولتي [...] تقول دائما "أنت المنفي!" ص 64-65.

2 - "الحب و الكتابة": الهوية، اللغة المرأة

في القسم الثاني من الرواية الحامل عنوان: "الحب و الكتابة"، يتعرف بركان الذي فقد حبيباته الثلاث، ماريث التي هجرته، القصة التي شوهها و حليلة أمه التي غمرها التراب، على ناجية، حبيبة رابعة، قضى بين ذراعيها ليالي حب ساخنة، ناجية تلتحق بالحبيبات الثلاث: ماتت حليلة و لكن مواويلها و حكاياتها الخرافية ما زالت تحيا في الفؤاد، ماريث فقدت ولكن سنواتها الغرامية ما زالت تزين الحياة، القصة شوهت و لكن اللغة والطفولة ما زالت بازغة في الأعماق، و الآن ناجية، الحياة، الحب، الدفء والأمل يطرق باب بركان.

معها يحكي ذكريات طفولته التي تسكنه، تسمعه ساعات لينصت حديثها ليالي. ناجية مرآة بركان، الأمل الذي رآه بركان يشرق من جديد مظهرا السبيل إلى الهوية، ناجية و بركان فرد واحد، كلاهما كأوراق الخريف تنثرها الرياح هنا

وهناك، كلاهما قد ضل وراح يبحث عن هوية بين لغات مختلفة، هوية بين قديم و جديد، جميل و قبيح.

"الزائرة"، هكذا أسماها بركان، و هكذا عنوت آسيا جبار الجزء الأول من هذا القسم. الزائرة كانت إحدى معارف الأخ الصحفي دريس جاءت تقضي أياما عند الصديق في الطابق الأول فلم تجد نفسها إلا في الطابق الثاني مع بركان، تروي له حكاية جدها بابا سيدي. كان يملك دكان سجائر ويتحدث الفرنسية بطلاقة من كثرة تصفح الجرائد والكتب السياسية. زوجته لالا رقية كانت مثال المرأة المسلمة، تقية، أصيلة و برجوازية رفيعة المستوى. لم تكن تتكلم الفرنسية، لكن مزجت الإسبانية و كذا لغتها الأم العربية بنبرة تلمسانية فاتنة. في سن التاسعة عشر ابنهما حبيب، والد ناجية، يعقد قرانها على فتاة تقطن المدينة نفسها، كان ذلك في عام الثورة 1954. بركان يطلب من ناجية أن تحكي له قصة جدها و لكن بالعربية، " إنه يحدثها مستعملا الضمير أنت لا أنتم للتعظيم كالفرنسية، في لهجتي، نستعمل الضمير أنت ليس عطفًا أو لنعت القرابة العائلية ولكن ببساطة نستعمله، إنها لغة التقارب، لعلني أقول لغة لا تحتاج إلى ألبسة الحفلات الضخمة" ص 86

ثلاث سنوات مضت و يسقط الجد بابا سيدي قتيلا بأيدي جبهة التحرير الوطني، يسقط قتيلا لأنه رفض أن يدفع إتاوة الجبهة، لالا رقية أهدت حليها، لكن الجد قتل وهدت معه صروح عائلة هادئة. ناجية كانت صغيرة آنذاك، عامان مرا عن ولادتها وهي الآن أمام بركان تذكر كل شيء، تذكر القرية وهي تردد "دم، دم، دم"، تذكر والدها حبيبا وجدتها رقية وقد تطلخا بدم الجد... الدموع لا تبرح المقل والذكريات ما زالت راتعة في مخيلة ناجية.

لقد أحب بركان ناجية وعشقه هي حتى الثمالة. قضيا ثلاثة أيام بلياليها. يقصان حكايات قد طوتها السنون. على السرير الدافئ و في سكون الليالي الغرامية فتحا أبواب الماضي العتيق وذاب كل واحد منهما في الآخر، في ذكريات الآخر. ناجية صارت رمز الجزائر التي عاد بركان باحثا عنها بعد عشرين عاما من الغربة، استحال القصبة التي ظن بركان أنه فقدتها إلى الأبد، صارت ناجية رمز اللغة العربية التي قامت شفوية تواجه مارييز رمز الكتابة الفرنسية. " وحين نهضت،

علمت بعد دقائق أنني أنام فعلاً في بلدي، في منزلي وأن أصوات الأمواج تجيء و تذهب... ناجية وحكاياتها، ناجية وعربية جسدها قد أيقظ في بركان رغبة جامحة للكتابة، ليس لما ريز، ولكن ليكتب تاريخه، يكتب لنفسه" ص 102 - 103

ناجية حلت فجأة لتماماً فراغا رهيبا يعانيه بركان بعد عودته إلى العاصمة، ناجية أنارت، أذابت اللوعة التي تحرق فؤاد بركان بعد فراق ماري: المرأة الفرنسية تتضاءل يوماً بعد يوم. ناجية ضوت لتتسي بركان الحروف اللاتينية فهجر الأوراق ومكتبه ليحط متاعه بين ذراعي ناجية وشفهية لهجتها الوهرانية. في حياة بركان امرأتان تعجان بالرموز: ماري: ترمز إلى فرنسا وكل ما فيها، المنفى، اللغة والهجرة. ناجية ترمز إلى الجزائر وكل ما تدننه: الوطن، العربية، الأمل والأنوثة. كحليلة الأم رمز لغة الحليب، اللغة الأم، ناجية تنبض باسمها: ناجية ترمز إلى النجاة، إلى النجوى، إلى النجاء و إلى النجاء. ناجية حلت وأنجت بركان من منفاه وضياعه بين عالمين. ناجية النجوى التي كشفت لبركان سر الهوية المتبقية وهو يناجي حروفها الليلية، ناجية هينجاء بركان ومهربه لما أبصر الفضائع التي أحاطت بالقصبة، وناجية ومعها وبنجاء وسرعة استطاع الجزائري الضائع أن يحتضن الجزائر الحقيقية. لم أخرج طيلة اليوم، اكتفيت بالنظر إلى البحر من خلال النافذة من بعيد، البحر الذي يتمتم قريباً... انزلت بسرعة لما رف رشيد الباب، وأعطاني السمك، لقد أحس أنني لا أريد أن أتكلم أو أن أبقى، كيف أقول أنه بسبب هذه الكلمات المكتوبة أو التي تذكرتها فقدت صوتي، لغتاي اختلطتا فجأة امتزجتا... كيف أشرح له هذه العقدة، في عقدة الذكريات المحمولة بالرغبة؟ ص 125

ضف إلى كل هذه الرموز، فآسيا جبار قد اختارت الاسم ناجية تذكيراً بنجمة بطلة كاتب ياسين، ناجية النور الذي أضاء درب بركان الباحث عن اطلال الهوية، ناجية ونجمة رمز الأمل والأنوثة، ناجية و نجمة يكونان جناسا ناقصا في البلاغة. تاما في الحياة لأنهما ببساطة رمز الحياة. ماري: تمثل أيضاً الأنوثة، لكن بركان قد استطعم مع ناجية أنوثة من نوع آخر، فليس الجسد وحده السلطان الذي يكبل العاشق الولهان بل اللغة أيضاً كانت نبع الأنوثة. في كثير من رواياتها، بينت آسيا جبار أن الفرنسية قد خلت حروفها من عبير الصبابة، إنها لغة تقيم المسافات بين

القلوب، لغة خرس من كلمات الحب والغرام. ناجية و لغتها قد جسدتا الغرام والثورة. اللغة العربية أو بالأحرى اللهجة الجزائرية هي اللغة التي تكون الخيال الشعوري عند آسيا جبار، هي لغة الحب والرغبة و الشهرة، لغة العشق وانفتاح الأحاسيس عكس الفرنسية لغة الدم والخرس العشقي، اللغة الفرنسية أعطتها كلكنوزها ولم تهد لها كلمة واحدة من كلمات الحب.

ليلتان بذكريات الجزائر العتيقة، وفي ثالث ليلة عادت ناجية ببركان إلى سنة 1991، حيث بلد المليون شهيد قد صار ضحية الإرهاب، يومها ناجية قد شعرت أن المتزمتين سيريحون انتخابات 26 ديسمبر. المجانين، الإرهابيون و المتزمتون، صفات رددتها ناجية ومعها كل مشاعر آسيا جبار الروائية التي لم تخرس يوما لتكشف كل ما يشوه بلدها ماضيا أو حاضرا، بركان، ناجية وآسيا جبار ليسوا في الحقيقة إلا شخصية واحدة. شخصية الجزائري الذي يريد أن يظهر الوطن من كل ما يدنسها أن يصرخ فاضحا كل من يلطخ بهاء الجزائر.

بركان ينقد كلمة "مسؤول" التي ألصقت بالموظفين الذين جلسوا على كرسي الحكم، ينقد الكلمة وترجمتها إلى الفرنسية. فالمسؤول ليس الحاكم فحسب، بل هو كل من يسأل، المسؤول هو الطرف الثاني في معادلة الحوار، فلا مسؤول بدون سائل، وإذا تعدى الفعل، تعدى السؤال، وكل راع مسؤول عن رعيته السائلة، فالمسؤول ليس المستبد إنما الذي يسأل رعيته، يحاورها كي يضع الموازين بالقسط ويسن القوانين بالعدل. بركان ينتقد بشدة أفراد جبهة التحرير الأحياء الذين ما زالوا يفتخرون بدورهم الرائد في الثورة، و صارت لغتهم علقما، ألفاظا خالية من الثورة النقية. هذه اللغة قد فقدت قداستها كما فقدت القصة جمالها، صارت هذه اللغة، اللغة الرسمية التي استبدت كما استبدت اللغة الرجالية بلغة النساء في وطن كانت فيه النساء أخوات الرجال في الثورة. ناجية تنتقد بشدة الإرهابيين ولغتهم، إنها لم تعد تفهم عربيتهن، اللغة الأصيلة، الجميلة التي تبض حبا ورافة وخيالا صارت في ألسنتهم حروفا تطلق رصاص الدماء و سهام السموم.

لما ترحل ناجية بدأ بركان يكتب: "إنني لا أكتب بأحرف الهجاء العربية، هذه الحروف التي كانت الأفضل لتعبر عن علاقتنا مثلما في طفولتي حين كنت

أجلس على مصطبة المدرسة القرآنية بالقصبة السفلى اكتب قصار السور الأخيرة، السهلة جدا، طفلا كنت أسجل قطع النص المقدس حتى على ورق الحرير دون أن أعلم بأن هذه الكتابة لا تستعمل للشفاء و لكن للتبرك فقط، والاحتماء من كل شر[...] في ظل ناجية، أكتب بالفرنسية في حمى الأوراق [...]. حروفي اللاتينية، التي عبرت القرون، و التي نحتت على الحجارة الحمراء، والتي نسيت في الأطلال، لكن هذه الحروف بالنسبة للجميع رائعة [...].. إنني لا أكتب، لا أسمع صوتك، كلامك تنفسك، تهديداتك. (126 - 127)

في مفكرة الشتاء، عنوان الجزء الثاني من هذا القسم سجل بركان خمسة تواريخ : 25 ديسمبر 1991، 12 جانفي، 18 جانفي و 14 فيفري 1992 . اليوم الأول يوم الانتخابات حيث انتصر الإسلاميون و لكن هذا اليوم تذكر ماريز التي كلمها في الهاتف : " أريد أن أقول لك، أنه بفضلك و لأني عدت إلى بلادي، أحس أن حبك طوال هذه السنين، قد ... ترددت ثانية، قد جعلني مسالما". سريعا علمت ثقل هذه الكلمة، ماريز أعادت لي السلم مع نفسي، أنا الجزائري المغترب، والذي عمل عندهم في فرنسا [...] لقد جعلتني سالما، لهذا استطعت أن أعود، أعود إلى بلدي" (ص 131)

في 30 ديسمبر البلد في غليان، بركان يتذكر المراهقة، مراهقة ديسمبر 1960 و 1961 (ص 131 - 132).

في 12 جانفي 1992، الثورة في البلاد وبركان بكل طاقته يعيش المراهق، إنه يتحرك، وهما، شبحا قريبا"

في 14 جانفي، "ليلتها، كنت ناعسا، أحسست برغبة، ليس رغبة حب أو جنس، إحساس يشبه إحساس حامل تشعر بعلاقة تتحرك في جوفها[...] إنها ذكرياتي التي أيقظتني [...]". يومها عاد بوضياف إلى الوطن بعد نشوب العنف بين الجزائريين، عاد مثلك أنت يا بركان عاد هذا البطل من أبطال أول نوفمبر، قال ذلك دريس وهو متفائل بهذا الرجل وبأخيه" ص 132-133

في 14 فيفري: " أنا أكتب مسكون بناجية [...].. أكتب في ظلها رغم الفراق. أعود للإقامة في فضاء الطفولة حتى و إن رحلت القصبة ذرات غبارا [...].. أكتب في

أرض الطفولة و لأجل محبوبة ضائعة [...] .أكتب بالفرنسية، أنا الذي نسيت نفسي طويلا في فرنسا، الحب، الكتابة، أجريهما كل ليلة، و أحيانا لا أسمع حتى البحر" ص 134-135.

لما ترحل ناجية، يعود بركان إلى فراغه اللغوي، إلى حالة الجفاف اللفظي الموسيقي. كتاباته لما ريز باللغة الفرنسية لا تستطيع أن تخدم آلامه، إنه يخشى أن تخطط الكلمات الفرنسية كفه.رحلت ناجية الحبيبة وقرر بركان أن يكتب مذكراته، فناجية وصلته بحكايتها بعالم طفولته. " إني أكتب لك، من أجلك [...], أحس لأجلك فقط الآن أني واقف لأول مرة في حياتي في لغة كتابتي، جالس في الأعماق، واجدا جذوري[...]بفضلك، كلما بحثت عن كلماتي، كلما وجدت لحنا في، لعلني أحب أن أصلك، أن أخذك[...] كتابتي التي أمدها إليك، صارت جلدي، عضلاتي، صوتي[...] الحب العشق ليس زيادة كلمات، لمسات، عنف في التعانق الذي يمتد، إنه وشم على ورق يقرأ" ص 129.

لقد عنون مذكراته بالمراهقة، و فيها راح يسرد أحداث حرب التحرير ودوره في النضال لما كان مراققا. وقرر أن يكتب ذكرياته، ذكريات المراهقة وقد خصصت أسيا جبار لها أكثر من أربعين صفحة، هذا الجزء لهو أطول الأجزاء لأنه حبل وصال بينه وبين الوطن. فقد ضاعت القصة ورحلت ناجية ولم يبق إلا الذكريات الجميلة، ذكريات المراهقة.

لماذا اختار هذا العنوان و هو يعلم يقينا أن المراهقة ليست عمرا يستطيع أن يحيا بين نيران الحرب. لا يستطيع الجزائري أيامها أن يحتضن سن المراهقة، فهو إما طفل بائس كبله الجوع، أو رجل وجب أن يناضل أو شيخ قد هذه الهرم: "بالعربية، و في حيي، لعلنا نقول صغير، مثلما نقول الصغير الأول في السينما. هذه التسمية كانت تطلق على الممثل في الكوميديات الغرامية الحلوة و التي تغنى بالمصرية، هذه التسمية ليست مثلا عندي. أبي عذب و سجن، أخي الكبير أعتقل، لم أكن أحس أنني صغير، طفل مثل هذه الكوميديات، عندنا، الكل كان يحلم، حين كان لا يحس أنه لم يعد طفلا، يحلم أن يكون صلبا، مثلما كان الذين تحدوا الطيارين الفرنسيين و الذين قتل أكثرهم مثل علي لابوانت" ص 140

هي هكذا ترمز لكن لدي لا تعني شيئاً من هذا" المراهقة هي المرحلة بين الطفولة و الكهولة حيث يبحث الإنسان عن نفسه، و إن البحث ليس إلا دليلاً على الشعور بالحرية - أقول الحرية - مفهوم مستحيل تعقله في تلك المرحلة الدموية حيث فقد فيها كل جزائري إما قريباً أو جاراً، ابناً أو أباً، باختصار عزيزاً، خطف، عذب و أعدم بأيدي الجنود الفرنسيين. فلا حرية، لا تألق، لا فرح، و لا طيران. الطفل يكبر ليس ليكون مراهقاً بل ليفكر أنه صار رجلاً و عليه أن يبحث عن مخرج من هذا العالم الأسود، عن وسيلة لكسر قيود الاستعمار، لا مراهقة و لكن عقد مع الموت. في ذكرياته يتحدث بركان عن الوطن، عن العلم، عن أخيه علاوة و عن البركان الشعبي الذي انفجر كل يوم ضد الاستعمار (ص 140 - 149) يتحدث عن ذكرياته، لما كان عمره خمس عشرة سنة مع أصحابه و هو يدخل أول مرة بيت دعارة، إنه يريد أن يتبث رجولته (ص 150 - 154). و أكثر ما كتب بركت في مذكرات مراهقته، مظاهرات 1961 (ص 166 - 156)، حين سجن و عذب دون رحمة (ص 158 - 161)

في مذكراته يسرد بركان مظاهرة سكان القصبة في ديسمبر 1960 و هي لا تأبه برصاصات و رشاشات الاستعمار. الشهر نفسه و العامان مختلفان، في سنة 1960 قام الشعب ليثور، ليحيا، و في سنة 1991 قام الشعب ليموت ضحية الإرهاب. الاستعمار أخرس المظاهرات و لكن بعد عام، سكان القصبة البسطاء قرروا أن يثروا من جديد، يطفئوا الشمعة الأولى للمظاهرات إكراماً لمن سقط شهيداً و لكن إشعالاً لنار لا يئدها النسيان. فرنسا حاضرة في شوارع القصبة لتعدم الأصوات و بعد ثلاثين عام، الإرهاب حاضر ليخرس الأفواه.

الزمن دائري و التاريخ يعيد نفسه، الأسماء تغيرت لكن اللغات - فرنسية أو عربية - هي نفسها تصم الآذان. بركان يذكر عام 1961، يومها أخرج العلم الجزائري، ما صفعه أبوه يومها، و لكن صفعته أكف الجنود. حملوه و علمه، و زج به في "خرابة" حيث كثيرون كانوا هناك، يومها و بين جدران الزنزانة تذوق بركان طعم الألم و فقه يقينا معنى العذاب.

فيسنواته الباريسية، رفض بركان أن يخط هذه الذكريات الأليمة، كان يعلم أن الكلمات لا تسمن و لا تغني من جوع، سكنته طوال عشرين سنة و ما استطاع أن يترجمها كلمات. هل درى أنه غريب في فرنسا و ذكرياته جزائرية تبحث عن فضاء تعرفه و يعرفها كي يحتضنان؟؟ الذكريات ترسم أمامه ثمتمحي لتبقى في اللب ذكرى واحدة سماها " قربان الرمل الرطب". الجنود الفرنسيون الثلاثة يمددونه على خشبة و ينهالون عليه ضربا، رابع الزبانية و يداهم مقبوضتان إلى رأسه: هل الزبانية تصلي، تردد ابتهالات رحمة على المعضب. من كثرة الألم صار بركان يخرف و يظن اليدين ترحمانه، و لكن لما يفتح فاه صارخا، يفتح الجندي يديه ليسيل منهما زخات رمل رطبة تخرس صرخاته التي دكت جدران السجن.

عشرين سنة قضاها في باريس لا ينبس ببنت شفة و ما زالت حبات الرمل تؤرق لعبه، ولم يجد إلا الكتابة كي يحاصر هذه الذكرى الفظيعة. هذه الذكرى التي سماها بركان " قربان الرمل الرطب"، " التي تشرق و تطوف في الذكريات كتركيب وهمي [...].، حتى أني ذات يوم، وفي صمت، رحت أرسم هذا الرباعي: عبدان نصف عاريين يعذبان، سجيننا مطروحا أرضا، عبد ثالث يسأله - مثل القرون الوسطى - [...] و آخر رابع، يرتدي أسود، يداه مجتمعتان و قد فتحهما تاركا رملا رطبا أشقر يسيل في فم المعضب الصارخ. كم مرة رسم الحادثة أمام ماريز و لكن ما مرة يشرح المحتوى الدفين كي لا تتحول فرنسا الجميلة بشعة في عيون ماريز المواطنة: "رسمت هذه الحادثة بسرعة أمام ماريز أثناء راحتها خلال حصة تدريبية مسرحية [...] و لما سألتها أن يشرح لها الرسم قال: "إنها مجرد خيال لإضاعة الوقت. لم أكن أريد أن أخبر ماريز حقيقة الحادثة، كيف أكون!! اعترفت لصديقتي الفرنسية، أن هذه الحادثة الفظيعة لم تكن صينية بل فرنسية" ص 165 - 166.

بعد شهور تعذيب، بركان ينتقل إلى فضاء خصص للمعتقلين، في سجن "بني مسوس"، هناك عاش حادثة زادت ذكرياته ألما و كانت أشد بشاعة من الأولى، و كان الأبطال ثلاثة: علم و ضحية و جندي: أحد المعتقلين صار جسدا بديعا لركلات أحد الجنود الفرنسيين، انهال عليه ضربا لأنه رفض أن يرفع ذراعيه محبيا العلم

الفرنسي، العلم، رمز البلد، رمز الهوية قد ملأ ذكريات بركان، طفلاً صفع بيد المدير والوالد لأجله ومراهقاً رآه السبب في الوحشية الفرنسية (ص 166 - 175).

3 - "الاختفاء": الهوية المفقودة

في الجزء الثالث الحامل عنوان "الاختفاء" بركان يختفي في إحدى طرق القبائل، بركان الذي عاش عشرين سنة في فرنسا وتلذذ بلغتها، بركان الذي عاش دهرًا في العاصمة واستطعم عربيته يختفي في القبائل مأوى الأمازيغية: الهوية بالوثها اللغوي يختفي. تسرد لنا الرواية مشاعر الأحياءدريس، ماريز و ناجية، الذين وجب عليهم أن يتعلموا كيف يعيشون دون بركان.

نهاية الرواية لا تقدم لنا شيئاً عن ماهية هذا الاختفاء، الشيء الوحيد الذي نستشفه هو أن هذا الاختفاء لم يكن منتظراً. "ثمانية أيام مرت على العثور على سيارة بركان، لقد وجدت في حفرة، في طريق هامشي، وجدتمقلوبة في طريق متوسط الارتفاع، ما وجدت حقائب ولا أوراق ولا أدنى إشارة [...]"، الراعي هو الذي أعلم الدرك الوطني لتدميت" ص 184

قراءة متأنية بين السطور تحملنا إلى الاعتقاد بأمرين: الأول أن بركان غادر الجزائر دون سابق إنذار وعاد أدراجه إلى فرنسا. بركان قد عاد إلى العاصمة رغبة في العثور عن هويته، لكن اصطدم بوضعية لم يستطع أن يعيشها بسبب الإرهاب الذي غمر البلاد، لم يقدر بركان أن يتمثل كنه وطنه. ووجد صعوبة كبيرة في كشف خفايا هويته حائراً بين تعليمه الفرنسي، جذوره العربية وذكرياته الطفولية الثورية، واستطاع بركان شيئاً فشيئاً وقد ساعدته في ذلك قصته مع ناجية أن يزاوج بين هذه المطابقات، استطاع أن يخرج ذكرياته الأليمة من صدره، لأنها إحدى مركبات هويته، حكاها لناجية وما استطاع يوماً أن يكتبها إلى ماريز. لقد حاول بركان جاهداً أن يكون هوية مركبة من ثقافتين، من لغتين لكن فشل أمام ارتفاع الإرهاب الديني. هذا الإرهاب كون عالمين: عالم "نحن" وعالمهم، عالم الآخرين. فهدف المتزمتين أن يمحووا من الخريطة العالم الآخر وكل ما يتعلق به، أن يمحووا كل جديد. دون أن ننسى أنهم أيضاً متجبرون مع كل من ينتمي إلى عالمهم ويحاول إنتقادهم. عالم نحن في نظرهؤلاء يتجسد في كل ما هو عربي مسلم،

والعالم الآخر هو الناطق بالفرنسية. بركان يريد هوية بلغات مختلفة يريد أن يخترع لغة فرنسية عربية كما أرادت دوما آسيا جبار التي جعلها حبها للغتين أن تكشف لغة جديدة. آسيا جبار "الروائية تهتم كثيرا بمفهوم الالتقاء، التقاء اللغات، اللهجات، التاريخ، اشتقاقات الصور والحكايات، التقاء بكل معانيه: انفجار أو اختلاف، صدام وانفتاح.

بركان أحس أنه ينتمى للعالمين أو هو بالأحرى العالمان: فرنسي عاش عشرين سنة في باريس، عربي عاش طفولته بالقصبة. وضعيته المزدوجة تؤرق الإرهابيين لهذا فالأمر الثاني المحتمل في اختفاء بركان هو أنه لم يعد إلى فرنسا و لكن كان ضحية الإرهاب. دريس يحكي: " لقد التقيت بأخي بركان أيام قليلة قبل أن يقرر السفر إلى الأماكن التي اعتقل فيها للمرة الثانية سنة 1962. لقد حذرته. لقد أخبرني أنه سينتقل مرة واحدة إلى دلس مدينة هادئة، هي بداية القبائل ز الناس هناك عرب... لقد قرر أن يذهب إلى تدميت، لأخذ صور لهذه الأماكن، والحديث مع الأهالي الذين بإمكانهم تذكر المعتقل الذي وجد سابقا... أهل قتل بركان غلطة من طرف مجانين الإرهاب لأنه يحمل اللقب نفسه لبركان أخيه... لقد تلقى دريس وزميلان من زملائه في الجريدة رسالة احتوت على قطعة قطن بيضاء، حبات رمل، وورقة مطوية كتب عليها بالعربية " خائن"... القطن رمز الكفن و الرمل رمز التربة التي يدفن فيها كل مسلم... المجانين لا يرحمون، فقد قتلوا الطاهر جاؤوا ثلاثة أشهر قبل هذه الحادثة" ص 184 - 188

الكاتبة تقدم لنا تحليلا عميقا لماهية الإرهاب الديني الذي يرفض كل تنوع، يجهض كل جديد، يمقت كل اختلاف، فمن خالف عندهم أعدم و من أتى بالجديد فقد أتى ببدعة و البدعة في النار. عالمهم، عالم نحن، هو أصل العوالم و أرقاها و العالم الآخر ليس إلا تهديدا للهوية الإسلامية ووجب القضاء عليه في المهد، عالم نحن يرفض قوس قزح، فاللون عندهم واحد و من أراد أن يتزين بالألوان الأخرى خرج عن دائرتهم ووجب الانتهاء منه. بركان كان من هؤلاء، جزائري ولد بين أحضان القصبة، جزائري عاش عشرين سنة بين أحضان باريس، عاصمتان، ثقافتان، أصالة و معاصرة - ازدواج هوية قد أزعج الإرهاب فقرر اختفاء بركان من

الواجهة. "بركان اعتبر ذلك المغترب العابر، هل اختفي فعلا؟ و يبقى السؤال الهام: هل بركان كانت له كل قواه العقلية؟ و يجيب دريس الرجال الذين وكلت مهمة التحقيق لاختفاء بركان، قائد الشرطة و ثلاثة من أتباعه و رجل بزي مدني قد يكون مبعوث أمن الدفاع الوطني، إن بركان أختار أن يعود للعيش في هذه القرية على شاطئ البحر، يبقى أعزب في البيت العائلي و يستفيد من مبلغ تقاعد مسبق فرنسي إنه كان يكتب [...] يكتب رواية [...] وتواصل التحقيق بالفرنسية و تذكر دريس ما كان يقوله بركان: " حين أكتب ذكريات شبابي، اللغة الفرنسية تصير لغة الذاكرة" ص 186.

اختفى بركان أو مات، لا ندرى، الأمر الوحيد الهام هو أنه لم يكمل مسيرته و لم يستطع العثور عن هويته، الأقارب علموا الأمر و كانت ردود أفعالهم مختلفة. لما وصل الخبر ماريز لمت حقائبها و سافرت إلى العاصمة استضافها الأخ الأصغر دريس الصحفي، العدو اللدود للإرهاب بمقالاته اللاذعة، يظن أن أخاه بركان قد أصابته لغة المتزمتين. وهجرت ماريز باريس في نوفمبر 1993 تتذكر بأنها هي التي دفعت بركان أن يهجرها ويعود إلى أرض جذوره.

في العاصمة تلقت أخيرا ماريز الرسائل التي كتبها لها حبيبها بركان و لم يرسلها قط. لم تتلقها ولكن بالأحرى أهديت لها من طرف دريس رفقة السيرة الذاتية لبركان بعنوان "المراهقة" عليها تعرف بين أسطرها الشخصية الحقيقة لبركان، هوية الرجل الذي أحبه: "أحست ماريز أنها تحمل بركان فيها، تحت الأضواء، ستكون إذن قبره المضيء، لأنها ويا للحسرة قد طردته من حياتها عامان قبل ذلك، دفعته لأن يعود إلى أرض أجداده، أرض الظلام" ص 203.

ها هي ماريز تتخيل بركان حيا: " أنت بركاني، بركاني، لقد مت موة لم تكتمل، لقد حاصروك، وبدون شكعذبوك [...] لقد خطفوك، لم يدفنوك، نعم أدري، [...] ما زلت حيا، غير مكتمل و لكن حي". ص 202. بكت ماريز اختفاء بركان، أقول اختفاءه أو موته و ليس غيابه، فهي قد تعودت غياب طيلة عامين، غياب عذبها لم تستطع أن تنسى بركان، غياب أرقها فوافقت طلب توماس ليس حبا و لكن لكي لا تعيش وحيدة تجتر الذكريات الغرامية رفقة بركان، وافقت و

أعلنت مع الصمت صفقة العمر : " و قبلت أخيرا ماريز دور ماتيلد في مسرحية العودة إلى الصحراء ، لبرنار ماري كلتاس [...] . من أول تدريب ، لما كانت ماتيلد تحلم بالجزائر عند أخيها ، تنتهد أو تزأر : في فرنسا ، أنا دوما غريبة و أحلم بالجزائر العاصمة . هل الوطن هو المكان الذي ليس نحن فيه [...] في الكواليس ، و قبل أن تظهر على ساحة المسرح ، كانت تبكي عادة ، لأنها تتذكر أنه في الوقت نفسه و هي تمثل دورها ، بركان مسجون في إحدى مغارات القبائل ، حي ، يعذب [...] إنها ترى رأس بركان معلقا في إحدى أبواب القصبية يصرخ "حلي رباطي ، إنني أبرد ، إنه يترجى . أنا أموت هذا حتما و لكن أريد أن أدخل مدينتي ، أدخل حيي . الحومة" ، كما كان يقول ، الكلمة الوحيدة التي تعرف ماريز نطقها . لقد تعلمت كيف تتلق الحاء ، و يمكن أن تهتف أيضا : يا أولاد الحومة مثلما كان يصرخ بركان و مثلما سيصرخ لما يعود" ص 203-204 . و في أحضان توماس وجدت متنفسا لتحكي عن بركان لتبكي بركان ، لتبكي الجزائر ، لتبكي عودتها التي صارت اختفاء .

في القسم الأخير من هذا الجزء ، ترسل ناجية رسالة إلى بركان لا تعلم فيها اختفاء ، رسالة تعلمه فيها إقامتها ببادو الإيطالية : " ناجية كتبت رسالة إلى بركان في ديسمبر 1993 من بادو الإيطالية : كيف صرت أنا يا بركان : منفية [...] بعيدة و لكن من ماذا ؟ [...] كنت أتساءل عن سبب قرارك بالعودة إلى الجزائر" ص 207 - 208 في بادو قرأت كتابا أهدتها لصديقة فرنسية بالقاهرة ، كتاب لإراسم بعنوان " في مدح الجنون" ، علمت أن إراسم عاش في بادو في بداية سنة 1500 : " في عمقي و كان هذا الرجل العظيم الذي لا يرى ضله غيري كان يحييني ويقول : إنك في بيتك هنا عند أجدادك" . ص 210 . ولأنها كانت تحبه و كانت تخشى أن يحصده الإرهاب ، أرسلت له رسالة و فيها نسخة من إحدى كتابات إراسم كتبها في بادو سنة 1508 تحت عنوان "رسالة في الأحلام" ، و جهها إلى طالبين ، توماس فراي و أخيه . و كان إراسم يقول لطلبته : "عيشوا بسر" [...] ، بركان ، دريس لماذا لا تأتيا إلى بادو تعيشان في سر هنا" ص 213 - 214

دريس تلقى الرسالة و لا يريد أن يفتحها . همه الوحيد أن يغير كل يوم شقته خوفا من الإرهابيين ، صار دريس الأخ الأصغر لبركان هو الآخر غريبا في وطنه في

آخر الرواية نقرأ "في أواخر نوفمبر 1993 فر المفنسون، صحافيون، أساتذة، جمعاويون وأطباء من بلادهم متجهين إلى فرنسا أو كندا، فروا بتغيير النظام كما فر المور الأندلس و اليهود غرناطة بعد سنة 1492 زمرا و أفواجا. قرون خمسة تمر و التاريخ دائري، سنة الحياة وما أبشعها من سنة". ص 199.

إن رواية إختفاء اللغة الفرنسية ترتكز على فكرة أساسية: البحث عن الهوية، هوية جزائري غاب عنوطنه عشرين سنة، فعاد أدراجه ليكشفه فلم يستطع أن يتبينه، فريسة الأحاسيس الأليمة، كالشعور بفقدان الجذور، ضحية الرغبة الجامحة لإعادة الخيط الرفيع الذي يصله بتقاليد العربية الأصيلة و ينسيه ما تعيشه البلاد من إرهاب. يضع بركان في هذا الخضم، يضع في الأصوات التي تكون أناه، صوت ماريز حبيته الفرنسية و أصوات حليلة والدته و ناجية حبه الوهراني العربي. يضع بركان و لكن يقف باحثا عن أنا سوي ينبض باللغتين، بالثقافتين، رأى هويته تزدان و تتمر بهذا الخليط الجميل، راحة لم تكتمل قد أزعتها أصوات لا تمت بالعربية و لا الدين و لا الأصالة بشيء، أصوات بشعة أطلقها الإرهاب بداية التسعينات. بركان عثر عن معادلة الهوية: مزيج ثقافات و إن حاول إخفاء جانب من هذا المزيج، اختفت هويته. لهذا ما استطاع و ما أراد أن ينسى فرنسيته، عمره الباريسي، فهي جزء منه و هذا الجزء هو الذي أزج عالم "نحن". اختفى بركان، و اختفت اللغة الفرنسية باسم دعاة الإرهاب.

اللغة هي العنصر الهام في رواية إختفاء اللغة الفرنسية، التكوين الهوية، اللغة هي الوريد الذي تسيل فيه أعمال آسيا جبار الإبداعية. آسيا جبار كبركان محاصر بلغات، بأصوات لهذا فقد كتبت عملها "هذه الأصوات التي تحاصرني" لتبين ضياعها في عالم اللغات، عنوان يذكرنا بما كتبه عبقرى المسرح سنة 1968، الكاتب الأيرلندي "صمويل بكيث" الذي كانت كل أعماله بالفرنسية: "هذا الصوت الذي يحدثني... إنه ينبع مني، يملأني، يصرخ من وراء الجدران، إنه ليس صوتي، لا أستطيع أن أوقفه، لا أقدر أن أمنعه من تمزيقي، من محاصرتي".

إن كانت اللغة الفرنسية لغة المستعمرين و الجنود، لغة الحرب و الدم، لغة الاغتصاب والعنف، لغة الاحتضار و المعاناة، فهي اللغة التي سمحت للجسد بأن

يتحرر و للمرأة الكاتبة أن تخرج من سجنها، الموت، الصمت، في روايتها "الحب و الفتازيا" و رغم أنها تعلم أن الفرنسية هي رمز الاستبداد فهي تعتبرها قميص "نسوس" القميص الذي كان في الوقت نفسه هدية "لديجانين" زوجة "هركلس"، وسما "لهركلس" أي أن اللغة الفرنسية بالنسبة لبركان البطل وآسيا جبار الروائية ثراء و حرية كما هي أيضا إحتقار و استعباد.

المراجع

1. جبار، آسيا، نساء جزائريات في حجراتهن، باريس، ألبين ميشال، 1980 .
2. جبار، آسيا، الحب، الفتازيا، باريس، ألبين ميشال، 1985
3. جبار، آسيا، ليالي ستراسبورغ، باريس، ألبين ميشال، 1997
4. جبار، آسيا، هذه الأصوات التي تحاصرني: على هامش فرنكفونييتي، باريس، ألبين ميشال، 1999.
5. جبار، آسيا، اختفاء اللغة الفرنسية، باريس، ألبين ميشال، 2003
6. شيخي، بيضاء، الأدب الجزائري. رغبة للتاريخ والجمالية، باريس، لرمتان، 1998.
7. كال -كريبار، ميري، آسيا جبار و مقاومة الكتابة، نظرات كاتب جزائري، باريس، مزونوف، لروز 2001.
8. كلارك، جان ماري، آسيا جبار، الكتابة، التعدي والمقاومة، باريس، موريل / لرمتان، 1997.